

إحياءات التوحد في كلام أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام

الدكتور سيد عدنان اشكوري*

المستخلص

لقد اتفق الكثير من المؤرخين وذوى العلم والمعرفة على كون شخصية أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام شخصية فذة لا يكاد يضاهاها أحد. فهو إنسان ذو أبعاد عديدة جلّت عن أن يبلغ كنهها المتمتعون. وقد ذهب البعض إلى أنّ الإمام علياً كان قد سبق عصره بكثير. فحارت كثير من الأفهام تجاه هذه العظمة وذهبت مذاهب شتى. فمنهم من لم يُطبق سموه فنصب له ولأتباعه العدا. ومنهم من آله وجعل يدعو لعبوديته. وقصّر آخرون عن درك عظمتهم فقصّروا في حقّه ولم يتوانوا عن التواني في نصرته. ولم يكن سوى فئة صغيرة من أتباعه وأهل بيته ممن قدره حقّ قدره فلم يُفِرطوا في حقّه ولم يفرطوا. كل ذلك جعل منه رجلاً متوحداً فذاً مغترباً بين أبناء جلدته وعشيرته. وقد بثّ الإمام عليه السلام لواعج وحدته هذه في طيّات خطبه ورسائله وكلماته ومواقفه المختلفة. ترمى هذه الدراسة إلى معرفة أبعاد التوحد الذي عاشه أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليه السلام، من خلال استعراض موضوعي لكلامه في نهج البلاغة مبتدئة البحث بتمهيد لمبحث التوحد في المفهوم والمصداق وتقديم نماذج شعرية من الشعور بالتوحد. الكلمات الرئيسية: التوحد، الإمام على عليه السلام، نهج البلاغة، الاغتراب، الحقّ.

المقدمة

إنّ الشعور بالغرابة ليس شيئاً جديداً، فهو قديم قدم الإنسان. ومنذ أزمان بعيدة رأينا كيف أنّ أناساً كثيراً كانوا يعانون الغرابة رغم أنّهم يعيشون في مجتمعاتهم وبين ظهرائى قومهم. وبغضّ النظر عن كون دواعى هذه الغرابة إيجابية أو سلبية فإنّ هذا الشعور مملّ مميت. إلا أنّ بعض الفلاسفة

* أستاذ مساعد بجامعة «تريبب معلم»، طهران eshkewaree45@gmail.com

تاريخ الوصول: ٨٩/٧/١، تاريخ القبول: ٨٩/٧/٥

- ومنهم ابن باجه الأندلسي في كتابه تديرير المتوحّد - يفضّلون تسمية الاغتراب الإيجابي بالتوحّد. أي أن يواجه المرء بيئة غير مألوفة لا يكاد يمت إليها بصلة، ولا تشاطره همومه ولا تحاول أن ترتقى إلى مستواه الفكري والعقلي، فهو بذلك يمتاز بخصال تفوق خصال بني قومه. فابن باجه «يشبّه المتوحدين بالنوابت وقد نقل إليهم هذا الاسم من العشب النبات من تلقاء نفسه بين الزرع ويستعمله ليصف أولئك الحكماء الذين يعيشون في المدن الجاهلة، ذلك أنه من خواص المدينة الكاملة أن لا يكون فيها نوابت. فالنوابت هم الذين يرون غير آراء أهل مدنهم» (القيومي، محمدابراهيم، ١٩٨٨م: ٣٢) يقول الدكتور معن زيادة في مقدمته على كتاب تديرير المتوحّد لابن باجه:

فالتوحّد إذن هو إنسان غير عادي ينظر حوله ليكتشف أن كل ما في محيطه غير طبيعي، ملوث وغير صحّي. والسبب الرئيسي الذي يقوده إلى هذه النتيجة هو عيشه في مدينة غير فاضلة والسبب الرئيس في كون المدينة غير فاضلة هو أن أفعال مواطنيها لا تقوم على العقل ولا تستند إلى العقلانية... ووجود الإنسان العاقل في إحدى المدن [غير الفاضلة] أو مشتقاتها هو سبب توحّده. فالتوحّد هو إلى حد بعيد، قناعة الفيلسوف بالتخلّي عن حلمه في العيش في المدينة الفاضلة. (ابن باجه، محمد بن يحيى، ١٩٧٨م: ٤٧)

ولسنا هنا بصدد مناقشة رأي ابن باجه ومصاديق التوحّد، إلا أننا نفضّل استخدامه لمصطلح التوحّد للأفذاذ الذين يعيشون في بيئة لا تواكب عظمتهم ولا تدانيتها. أمّا في شأن أمير المؤمنين عليّ (ع) فإنّه وكما سنرى يختلف عن الفيلسوف المتوحّد الذي تحدّث عنه ابن باجه بأنّه لا يتخلّى عن حلمه في العيش في المدينة الفاضلة، ويظلّ يقاوم ما أمكنه ذلك لأنّه يأخذ بنظر الاعتبار واجبه الذي ألقاه الله على عاتقه. يقول عليه السلام في تبيين دواعي قبوله للخلافة:

أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم لألقت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها ولألقيتم دنيكم هذه أهد عندي من عظة عنز. (عبده، محمد، ١٤١٣هـ.ق: ٥٦)

أي أنّه ورغم الظروف العاتية التي يواجهها في المجتمع المنحرف لا يشعر باليأس ويرى أن من واجبه كعالم ربّاني فذّ أن لا يصمت تجاه غطرسة الظالمين وسغب المظلومين، هذا بالإضافة إلى السعي نحو إقامة مجتمع توحدي عادل ما أمكنه ذلك.

من خلال هذه النظرة يتّضح لنا أن الإمام علياً عليه السلام يختلف في غربته وتوحّده عن سائر المغترّبين في نقاط ويشاطرونه الاغتراب في نقاط أخرى. وهذا ما تحاول هذه الدراسة أن تبيّنه والله ولي التوفيق.

ألف) البعد عن الأوطان

إنَّ الشعر العربي حافل في شتى مراحلهِ وعصورهِ بمعاني الغربة الجغرافية وأبيات الحنين إلى الوطن. فالمعروف عن العربي أنه كثيراً ما كان يضرب في الفيافي والصحارى إمّا طلباً للكسب والرزق وإمّا لأغراض سياسية وعسكرية واجتماعية. وكان لذلك النأي عن الأوطان أثره في إثارة قرائح الشعراء للتغنى بمشاعر الغربة والحنين إلى البيئات التي نشأوا فيها. ونشير هنا إلى نماذج من أبيات الحنين. يقول حاتم الطائي:

حننتُ إلى الأَجبالِ أَجبالِ طَيٍِّّ وحنَّتُ قلوصى أن رأْتُ سوطَ أحمرِ

(الطائي، حاتم، ١٤٠٦ هـ.ق: ٢١)

وقد عبّر شاعر آخر عن تبرّمه في الغربة التي تضطرّه أن يتحامق مع الحمقى:

وأنزلتني طولُ النوى دارَ غربةٍ إذا شئتُ لأقيتُ امرأً لا أشاكلُهُ
فحامقتهُ حتى يقالَ سَجِيَّةٌ ولو كان ذا عقلٍ لَكُنْتُ أَعاقِلُهُ
ولو كنتُ في قومي وجلّ عَشيرتي لألّفتُ فيهم كلَّ خِرْقٍ أوِاصلُهُ

(ابن عربي، ١٤٢٢ محبى الدين، هـ.ق، ج ٢: ٣٠٣)

ويميّن آخر نفسه بالعودة إلى دياره التي نأى عنها فذاق كل هوان في دار غربته:

ألا ليت شعري والحوادثُ جَمَّةٌ متى تجمع الأيامُ ما فَرَّقَ الشملا
وكلُّ غريبٍ سوف يُمسي بِذِلَّةٍ إذا بانَ عن أوطانِهِ وجفا الأهلا

(المصدر السابق: ٢٨٠)

وهذا عنترة بن شدّاد يصف حنينه إلى وطنه عندما خرج يريد خلاص ولديه من الأسر غصوب وميسرة:

أحرقنتني نارُ الجوى والبعادِ بعدَ فُقدِ الأوطانِ والأولادِ
شبابَ رأسى فصارَ أبيضَ لوناً بعدَما كانَ حالكاً بالسوادِ

(عنترة بن شدّاد، ١٨٩٣م: ٣٤)

وذكر الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد أبياتاً لأبي محلم الشاعر أنشدّها لعبدالله بن الطاهر عندما مرّ بمدينة الرىّ في طريقهما إلى خراسان. وكان أبو محلم قد تعب من كثرة السفر طلباً للرزق وحنّ لأسرته بالحجاز. ويزداد إحساسه بالغربة بعد أن دهمته الشيخوخة العاجزة، فيتلهّف على أن يستريح من رحلة الحياة بالعودة فيقول:

أفسى كلّ عامٍ غربةً ونُزوحُ
لقد طلحَ البينُ المشتُّ ركائبي
وذكرنسى بالرىّ نوحُ حمّامة
و ناختُ وفرخاها بحيثُ تراهما
على أنّها ناختُ ولم تذرْ دمعةً
عسى جودُ عبدِ الله أن يعكسَ النوى
أما للنوى مِن ونيّةٍ فنريحُ
فهل أريّنَ البينَ وهو طليحُ^٢
فُنحتُ وذو الشَّجْوِ الحزينِ يَنوحُ
ونُحتُ وأسرابُ الدموعِ سفوحُ
ومِن دُونِ أفراسي مهامهُ فيحُ^٣
فنلقى عصى التطوافِ وهى طريحُ

فما كان من عبد الله بن الطاهر إلا أن زوّده بستين ألفاً من الدنانير ومركب وكسوة، وسرّحه ليعود إلى أهله. (الخطيب البغدادي، احمد بن علي، ١٤١٧ هـ.ق، ج ٩: ٤٩٣)

ويحكى أنّه عندما كان ابن جبير في دمشق قطع غصنا صغيراً من شجرة كبيرة ثمّ قال:

لا تَغْتَرِبْ عَن وَطَنٍ
وَأَخَذَرُ تَصَاريفَ النوى
أما تَرى الفُضنَ إذا
ما فارقَ الأصلَ ذوى؟

(فهييم، حسين محمّد ١٩٨٩م: ٩١)

والأدب العربي زاخر بمثل هذه النماذج، جمعها البعض في مختاراتهم الأدبية (للمزيد راجع كتاب الحنين والغربة في الشعر العربي للدكتور يحيى الجبورى)

أما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فإنه لا يرى لتربة ما حقاً عليه لكونها وطناً له. إذ إنّ أفقه الفكري أعمق وأسمى من أن تأسره أصفاد الوشائج المادية. إنّه الرجل المثالي الذي ينطلق من مبدأ قرآني، فالقرآن الكريم يرشد أتباعه إلى الضرب في الأرض واتخاذ سبيل الهجرة فيما إذا تعرّضت عقيدتهم للخطر في البيّنة التي يقطنونها: **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَأَسِعَةَ فُتْهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** (سورة النساء: ٩٧) فالآية واضحة كلّ الوضوح وتمنع المرء من المكوث في الوطن عندما تداهم عقيدته المخاطر. يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

لَيْسَ بَلَدٌ بِأَحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ خَيْرُ الْبِلَادِ مَا حَمَلَكَ. (عبده، ١٤١٣ هـ.ق: ٧٢٤)

ولو تأملنا في معنى هذا الحديث البسيط لظفرنا بملاحظتين:

الأولى أنّ صيغة الكلام إنّما تقصد المخاطب دون المتكلّم، أي إنّ لا يتحدّث عن نفسه وحسب وإنّما يقصد تعميم الكلام على أتباعه وتلاميذته. الثانية أنّ بلاد الدنيا عنده سواء لا فضل لأحدها على الآخر إلاّ فيما يتوفّر للمرء فيها من أمان واحترام وضمن للحقوق. وتؤيّد هذا المعنى أبيات من الشعر نُسبت إليه وأدرجت في ديوانه:

تَغَرَّبَ عَنِ الْأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلَى وَسَافِرٌ فِي الْأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفْرُجُ هَمًّا وَأَكْتَسَابُ مَعِيشَةٍ وَعِلْمٌ وَأَدَابٌ وَصُحْبَةٌ مَاجِدِ
فَإِنْ قِيلَ: فِي الْأَسْفَارِ ذُلٌّ وَمِحْنَةٌ وَقَطْعُ الْفِيَا فِي وَارْتِكَابِ الشَّدَائِدِ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ مُقَامِهِ بِدَارِ هَوَانَ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ

(الإمام علي بن أبي طالب، ١٣٨٢ هـ.ق: ٤٥ و ٤٦)

ولا نكاد نجد له كلاماً يوحى بشكواه من غربة جغرافية ومكانية أو ينم عن حنين إلى وطن. بلى قد جاء في نهج البلاغة ما يشيد فيه بمكة لكونها البلد الحرام الذي أوجب الله تعالى الحج إليه.

(ب) النوى الزماني

تقصد بالنوى الزماني شعور المرء بعدم انتمائه لزمانه الذي يعيش فيه. إذ قد يتحول المرء عن عهد زمني كان قد ألفه وأنس به إلى عهد آخر انقلبت فيه الموازين ولم يعد يشعر بصلة تربطه بهذا الزمان الجديد. وأكثر ما يكون ذلك في مرحلة الكبر حيث يواجه الإنسان عهداً غير عهده وقد فتر جسمه وضعفت ذاكرته ولم يعد الشباب من حوله يعبرونه أدنى اهتمام وبدأوا يتبرمون به ويضيقون به ذرعاً. لعل خير مثال على ذلك بيت الشعر المعروف:

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيبُ

يقول الشريف المرتضى في ذم المشيب الذي يسلبه محاسنه ويعيره مساوى الدهر:

لا مرحباً بالشيبِ أظلمَ باطنى لَمَّا تَجَلَّلْنِي وَأَشْرَقَ ظَاهِرِي

لا ذنبَ لِي قَبْلَ الْمَشِيبِ وَإِنِّي لَمُؤَاخَذٌ مِنْ بَعْدِهِ بِجِرَائِرِي

(محجوب، فاطمة، بلا تا: ٦١)

ويقول أبو فراس الحمداني:

ما إن شبتُ من كبرٍ ولكن لَقِيتُ مِنَ الْأَحْبَةِ مَا أَشَابَا

(الحمداني، ابوفراس، ١٩٨٧م: ٢٧)

والأدب العربي زاخر أيضاً بأنواع الشعر الدال على شعور المرء بالغربة عندما يطعن بالسن. وهذا النمط لا نكاد نجد له مثلاً لدى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو المعروف بعدم اكتراثه للدنيا وبتحذير الناس من الوثوق بالدنيا وهو الخبير بأحوال الدنيا ومآل الإنسان. يقول عليه السلام:

مَا أَسْرَعَ السَّاعَاتِ فِي الْيَوْمِ وَأَسْرَعَ الْأَيَّامِ فِي الشَّهْرِ وَأَسْرَعَ الشُّهُورَ فِي السَّنَةِ وَأَسْرَعَ السِّنِينَ فِي الْعُمْرِ. (عبده، محمد، ١٤١٣ هـ.ق: ١٨٦)

ويكفي أن يلقي أحدنا نظرة فاحصة إلى نهج البلاغة ليجد نفسه أمام امرئ خلع كل مظاهر العبودية لغير الله تعالى وأعرض عن الدنيا وعافها عيافاً لا رجعة له.

وقد يكون سبب الغربة عيش المرء في بيئة تنكرت له من حيث الفضائل التي أخذت بالتلاشي وحلت محلها معايير لا تمت بصلة إلى معتقدات الفرد فيبدأ بالتذمر من هذا التنكر ويبدى شكواه بصور مختلفة. فمنها أنه يذكر محاسن الأيام الماضية ويقارن بينها وبين حاضره المرفوض. ومنها أنه يتطلع نحو غدٍ مشرق زاهٍ يختلف عما هو عليه الآن. وهذا النمط قليل في الشعر العربي إلا لدى الموقنين ببشائر الأديان السماوية الواعدة بظهور المنقذ في آخر الزمان، والذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً. يقول القرآن الكريم: **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** (سورة الأنبياء: ١٠٥). ويقول عز من قائل: **وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ** (سورة القصص: ٥ و ٦). إن الإيمان بمثل هذه الوعود والتطلع إليه بلهفة ونفاد صبر، يعد نوعاً من الغربة الزمنية. وهي كما ذكرنا قليلة في الشعر العربي لا نجد لها إلا عند الموقنين بها. يقول دعبل الخزاعي:

فلولا الذي أرجوه في اليوم أو غدٍ	تَقَطَّعَ قَلْبِي إِثْرَهُمْ حَسْرَاتِ
خروجُ إمامٍ لا محالةً خارجٌ	يَقُومُ عَلَيَّ اسْمُ اللَّهِ وَالْبِرَكَاتِ
يَمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ	وَيُجْزِي عَلَيَّ النَّعْمَاءِ وَالنَّقِمَاتِ
فيا نفسُ طيبي ثم يا نفسَ أبشري	فغَيْرُ بَعِيدِ كُلِّ مَا هُوَ آتِي

(البستاني، فؤاد أفرام، ١٩٩٣م، ج ٣: ٦٩ و ٧٠)

وأما النوع الأول من الغربة الزمنية - أي التطلع نحو الماضي - فقد جادت فيه قرائح الشعراء بالكثير الكثير.

لكن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، لا يطمح إلى عودة الماضي، يقول:

لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِدْبَارٌ وَمَا أَذْبَرَ كَانَ لَمْ يَكُنْ. (عبده، محمد، ١٤١٣ هـ.ق: ٦٦٣)

فهيات أن يعود الزمان بما مضى، لكنه إن تطلع إلى الماضي فلكون الحاضر يعجج بمظاهر سلبية لا تروقه ولا تناسب أفكاره ومعتقداته. يقول عليه السلام:

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصَبْنَا فِي دَهْرِ عُنُودٍ وَزَمَنِ كُنُودٍ يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئًا وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوًّا
لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا. (المصدر السابق: ١٠٠)

إنه يشكو انقلاب الموازين إذ يُعدّ المحسن مسيئاً ويُوفّر للظالم أن يزداد ظلماً والناس معرضون عن العلم مقبلون على الجهل ويؤمنون صروف الدهر حتى تقع بهم. إنه الخبير الذي خبر الدهر وعرف صروفه وكان أقل ما يتوقعه من مجتمعه أن ينصتوا لنصحه:

أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجْرَبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ. (المصدر السابق: ١٠٧)

ويتوق الإمام إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ويقارن بين أصحاب رسول الله وأصحابه المتفاعسين عن نصرة الحق والمكبين على حب الدنيا وزبرجها:

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَمَا أَرَى أَحَدًا يُشْبِهُهُمْ لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شِعْتًا غَبْرًا وَقَدْ بَاتُوا سَجْدًا وَقِيَامًا يُرَآوْحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ وَيَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رَكَبَ الْمِعْزَى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبِلَ جَبُوهُمْ وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ وَرَجَاءَ الثَّوَابِ. (المصدر السابق: ٢١٧)

وفي موضع آخر يصف أصحاب رسول الله الأشاوس المتفانين في الحق والذين لا يداهنون في سبيل إحقاقه ولا يوالون الذين كفروا حتى وإن كانوا من أقاربهم وذويهم:

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيْمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقْمِ وَصَبْرًا عَلَى مَضِّ الْأَلَمِ وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسْتَقِي صَاحِبُهُ كَأَسِ الْمُنُونِ فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بَعْدُونَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ وَمُتَبَوِّئًا أَوْطَانَهُ.

ثم سرعان ما يبدي شكواه بعقد مقارنته بين أصحابه وأصحاب رسول الله ثم يبدي مخاوفه من تقاعس أصحابه عن نصرة الحق قائلاً:

وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَلَا اخْضُرَّ لِلْإِيْمَانِ عُودٌ وَإِنَّمَا اللَّهُ لَتَحْتَلِبُنَّهَا دَمًا وَلَتُسَبِّحُنَّهَا نَدْمًا. (المصدر السابق: ١٢٩)

ج) الاغتراب الإخواني

قد يكون منشأ الغربة التي تنتاب المتوحد بعده عن أناس يعدّهم أحياناً له يخلو إليهم كلما داهمته الخطوب وضافت عليه الأرض بما رحبت. وغالباً ما يكون الفراق إثر افتقاده لأولئك الإخوان الذين فرق الموت بينه وبينهم. لقد بدأت غربة أمير المؤمنين بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. كيف لا وهو الذي كان بمثابة الظل للرسول يلزمه منذ نعمة أظفاره، خاصة وأنه صلوات الله عليه قد تعهده بالرعاية وكلف بتربيته وتنشئته. إنه يصف هذه القرابة بقوله:

وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعْنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي إِلَى فِرَاشِهِ وَيَمْسُنِي جَسَدَهُ وَيُسَمِّنِي عَرَفَهُ وَكَانَ يَمْضُغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ وَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ وَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثْرَ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ. (المصدر السابق: ٤١١)

ولشدة رعاية الرسول له آخى بينه وبين نفسه عندما آخى بين المهاجرين والأنصار فقال عليّ

(ع) في ذلك:

أفيك بنفسى أيها المصطفى الذي	هدانا به الرحمن من غمة الجهل
وأفديك حوائي وما قدر مهجتي	لمن أتتى فيه إلى الفرع والأصل
ومن ضمني مذكنت طفلاً وبافعا	وأنعشني بالعل منه وبألتهل
لك الفضل إنى ما حبيت لشاكر	لإتمام ما أوليت يا خاتم الرسل

(الإمام علي بن ابى طالب، ١٣٨٢ هـ.ق: ١٠٠)

ولشدة ما كانا يتناجيان ويبتان لواعجهما لبعضهما البعض، حتى إذا ما نزل أمر الله تعالى ينهى المؤمنين أن يناجوا الرسول إلا بعد أن يقدم المناجى صدقة قبل نجواه فقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المجادلة: ١٢ و١٣) أشفق كل المؤمنين من دفع الصدقة إلا علياً عليه السلام حيث دفعها وذهب إلى حبيبه رسول الله يناجيه، ثم أسقط الله ذلك حكم الصدقة عن المؤمنين فقال عليّ عليه السلام:

آية في كتاب الله عز وجل لم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدى، كان عندى دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدقت بدرهم، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدى. (ابن كثير الدمشقي، ١٤١٩ هـ.ق، ج: ٨، ٧٩)

فلما وافى الرسول الأكرم (ص) المنية وقبضه الله إليه قبض رافة واختيار، واجه عليّ (ع) بيثة جافية وتفرق عنه الناس إلا نفرأ يسيراً من خاصة الصحابة. وقد وصف في أيام خلافته غربته الشديدة بعد وفاة الرسول بقوله:

فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً على من قد قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يوم الناس هذا. (عبده، ١٤١٣ هـ.ق: ٦٢)

وكثيراً ما كان يبيث شكواه للرسول يقبل على مرقده الطاهر ويذرف الدموع عليه ويقول:
 إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنكَ وَإِنَّ الجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ وَإِنَّ المُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ وَإِنَّهُ قَبْلَكَ
 وَبَعْدَكَ لَجَلَلٌ. (المصدر السابق: ٦٩٤)

وقد نسبوا له هذه الأبيات يرثى بها رسول الله عندما كان يعرج على منواه الطاهر:

ما غاضَ دمعى عندَ نازلةٍ إلا جعلتُكَ لِلْبِكَاسِيَا
 وإذا ذكُرْتُكَ مَيِّتاً سَفَحَتْ عَيْنِي الدموعَ ففاضَ وانسَكَبَا
 إني أُجِلُّ ثرى حَلَلتَ بِهِ عَن أن أرى لِسِوَاهُ مُكْتَسِبَا

(الإمام علي بن ابي طالب، ١٣٨٢ هـ.ق: ١٤)

لكن الذي كان يخفف من وطأة هذه الغربة وجود فاطمة بنت محمد إلى جانبه يصبرها
 وتصبره، بعد إذ تعرضا للهتك والظلم من قبل أهل المدينة وقد كانا يرفلان في العز أيام رسول الله
 (ص)، ولا تقصد من العز بحبوحة العيش أو اليسر المادى، فهما من نزلت في حقهما آيات سورة
 الدهر تنبئ عن فقرهما المدقع وفاقتهما الشديدة في حياة الرسول وأنهما كانا يؤثران على نفسيهما
 وعلى أبنائهما ولو كان بهم خصاصة. وإنما نقصد الإيضاء المستمر من قبل الرسول للمسلمين
 بمودة أهل بيته ورعاية حرمتهم. جاء هذا فضلاً عن الحث القرآنى الأمر بمودتهم في قوله تعالى:
 قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى (سورة الشورى: ٢٣) تقول فاطمة الزهراء
 تخاطب أباها وتحدث عن غربتها وغربة علي (ع):

أبدي رجالاً لنا نجوى صدورهم لما مضيت، وحالت دُونَكَ الثُربُ
 واختل لقومك لما غبت وأقلبوا لما قضيت، وحالت دُونَكَ الكُتُبُ
 تجهمتنا أناس، واستخف بنا لما فقدت، وكُلُّ الإِثْرِ مُعْتَصِبُ
 قد كان بعدك أنباء وهنيسة لو كنت شاهدها لم تكثر الخطبُ
 إنا فقدناك فقد الأرض وإبلسها إذ غاب مذ غبت عنا الوحي والكُتُبُ

(الصالحى الشامى، محمد بن يوسف، ١٤١٤ هـ.ق، ج ١٢: ٢٨٩)

لكن مشيئة الله عز وجل قضت باشتداد توحّد على (ع) بوفاة فاطمة والتحاقها بالرفيق الأعلى
 بعد بضعة أشهر من رحيل الرسول الأعظم (ص). «وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله
 (ص) يا أبا الريحانيين عن قليل يذهب ركنك فلما توفى رسول الله (ص) قال على هذا أحد
 الركنين، فلما توفيت فاطمة قال وهذا الركن الآخر». (سبط بن الجوزى، يوسف بن حسام الدين،
 ١٤١٨ هـ.ق: ٢٨٧) فبادر على (ع) إلى دفنها ليلاً وأنشد يقول:

٣٠ إحياءات التوحّد في كلام أمير المؤمنين ...

أرى علل الدنيا على كثيرة
وصاحبها حتى الممات عليل
لكل اجتماع من خليلين فرقة
وكُلُّ الأذى دون الفراق قليل
وإن أفتقادي واحداً بعد واحد
دليل على أن لا يدوم خليل

وقال أيضاً :

ألا أيها الموت الأذى ليس تاركى
أراك بصيراً بالذين أحبهم
أرخصى فقد أفتيت كل خليل
كأنك تنحو نحوهم بدليل

(المصدر نفسه)

ولم تكن هذه الكلمات كلمات رثاء وحسب بل فيها ما يحكى عن تنكّر أهل المدينة وتكّيبهم عليه وعلى زوجه المظلومة. وقد عرّج بعد الفراغ من مدفن الزهراء نحو مرقد الرسول وبث شكواه إليه ينبئه بأن القوم قد كدروا عليه عيشه بعد عهد غير طويل من وفاته (ص). يقول على (ع):

السلام عليك يا رسول الله وعلى ابنتك النازلة في جوارك السريعة للحاق بك، قلّ تصبّرى عنها وضعف تجلّدى على فراقها، ألا إن في الناسى لى بعظيم فرقتك وقادح مصيبتك مقنعا فإننا لله وإنا إليه راجعون، فلقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة، أما حزنى عليكما فسرمدٌ وأما ليلى فمسهّد؛ إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم وينقلنى من دار التكدير والتأنيب، وستخبرك ابنتك بما لقينا بعدك فأحفظها بالسؤال واستعلم منها الأمور والأحوال، هذا ولم يطل العهد ولم يمتدّ الزمان، فعليكما منى السلام، سلامٌ مُودّع لا قال ولا ستم. فإن أنصرف فلا عن ملالة وإن أقيم فلا عن سوء ظنّ بما وعدّ الله الصابرين وأعدّ للمجرمين. (سبط بن الجوزى، يوسف بن حسام الدين، ١٤١٨ هـ.ق: ٢٨٧)

ولم يقف توحّد الإمام عند هذا الحدّ، بل شاء الدهر له أن يواجه من مصائب فقد الإخوة المواسين فى الله الشىء الكثير. وقد جاء فى نهج البلاغة ما يدلّ على هذا التوحّد الإخوانى شىء غير يسير؛ منه قوله عليه السلام قبل استشهاده ببضعة أيام فى كلام مؤثّر يندب فيه أصحابه الذين قضوا نحبهم فى صفين:

مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا الَّذِينَ سَفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَهُمْ بَصِيفِينَ أَنْ لَا يَكُونُوا الْيَوْمَ أَحْيَاءَ يُسْبِغُونَ الْغُصَصَ وَيَشْرَبُونَ الرَّيْقَ، قَدْ وَاللَّهِ لَقُوا اللَّهَ فَوْقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَأَحْلَهُمْ دَارَ الْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ، أَيْنَ إِخْوَانِي الَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ وَمَضَوْا عَلَى الْحَقِّ؟ أَيْنَ عَمَّارٌ؟ وَأَيْنَ ابْنُ النَّيْهَانِ؟ وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ؟^٥ وَأَيْنَ نَظَرَاؤُهُمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى الْمَنِيَّةِ وَأُبْرِدَ بَرُّهُمْ سِهِمَ إِلَى الْفَجْرَةِ؟

ثمّ ينقل الشريف الرضى عن الراوى قوله أنّه عليه السلام ضرب بيده على لحيته الشريفة الكريمة فأطال البكاء ثمّ قال:

أَوْهَ عَلَى إِخْوَانِي الَّذِينَ تَلَوْا الْقُرْآنَ فَأَحْكُمُوهُ وَتَدَبَّرُوا الْفُرْضَ فَأَقَامُوهُ، أَحْبَبُوا السُّنَّةَ وَأَمَاتُوا الْبِدْعَةَ،
دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا وَوَقَّوْا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ. (عبد، محمد، ١٤١٣ هـ.ق: ٣٦٩)

ولو تأملنا في هذا الكلام لرأينا أن هذا الرجل المتوحد الفذ يعمد دوماً إلى أن توحد ليس
كاغتراب كل راث يندب فقيده ويكيه، وإنما يبكي توحد العقائدي الناشئ عن التزامه الصامد
بالمبادئ والقيم والعقائد، وهذا ما يميزه عن سائر الناس بل عن سائر المعتريين المتوحدين. فهو لا
يكاد ينتهي من بكائه المرير حتى يبادر إلى بيان أن هؤلاء الذين يبكيهم كانت تربطه بهم صلة العقيدة
فهم التالون المحكمون للقرآن والمتدبرون الفرض والساعون لإقامته والمحيون للسنة والمميتون
للبدعة والمستجيبون لدعوة القائد الحق والمجاهدون تحت لوائه دون ريب أو شك. كانت هذه
الصفات آنذاك فذة لا تجتمع إلا في نفر قليل وافتهم المنية مما جعل صاحبهم يشعر بوحدته وغربته.

(د) التوحد الاجتماعي

تعدّ الغربة الاجتماعية واحدة من أشد أنواع الغربة، فالمغترب يعيش بين أهله وعشيرته وأقاربه وبين
ظهرانهم، إلا أنه رغم ذلك يشعر بالغربة لكون هؤلاء لا يشاطرونه همومه ولا يدينون بالعقائد التي
يدين بها فيرى نفسه في واد غير الوادي الذي يهيمون فيه. ولهذا النوع من الاغتراب أسباب ودواع
كثيرة وحالات مختلفة. لكن الذي انتاب علياً عليه السلام كان نوعاً من الاغتراب العقدي. فالذي
ميز علياً عن سائر الناس حرصه الشديد على الالتزام بمبادئ العقيدة والورع والتقوى. ولشد ما أخطأ
المؤرخون ونقاد التاريخ في حق الرجل إذ وصفوه بعدم الحنكة والدراية السياسية وأنه ما استطاع أن
يحتفظ بزمام الأمور فلم يدم الأمر له ولم تستمر الحكومة في قبضته. والسبب في هذه الأحكام
الجائرة أن بين المعايير والموازن التي يحكم بها هؤلاء ويصنفون على أساسها أرباب الحكم تختلف
كل الاختلاف عن التي انتهجها علي بن أبي طالب (ع). فعلى هو ذلك الإنسان الذي لا يسمح لنفسه
أن يُعطى الدنيا وما فيها مقابل ظلم بسيط لنملة يسلبها طعامها:

وَاللَّهِ لَأَنْ أُبَيَّتَ عَلِيٌّ حَسَكِ السَّعْدَانَ مُسَهَّداً أَوْ أُجِرَّ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ
وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظالماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ وَعَاصِياً لِشَيْءٍ مِنَ الْخَطَامِ ... وَاللَّهُ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ
بِمَا تَحْتِ أَفْلاكِهَا عَلِيٌّ أَنْ أُعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلَبَهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتَهُ. (المصدر السابق: ٤٦٩)

وهذا مما لا تحتويه قواميس هؤلاء المؤرخين، ومما لا تجد له نظيراً فيمن سواه من الحكام.
ولا بأس هنا لو أشرنا إلى رواية نقلتها عامة كتب المسلمين من سنة ومن شيعة بلغت حد
التواتر وهي رواية لرسول الله (ص):

بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء.^٧

إلا أن ما اختلفت فيه الروايات هو تكلمة الحديث حيث يسأل الرسول عن هؤلاء الغرباء وشأنهم فتروى له إجابات مختلفة في ذلك، نصنفها بحسب ما يلي وتأخذ نماذج تطبيقية منها من خلال كلام أمير المؤمنين علي (ع) وهي عبارة عن:

بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء. قيل ومن هم الغرباء يا رسول الله؟ قال: النزاع من القبائل.^١ (الأحسائي، محمد بن علي، ١٤٠٥ هـ، ج ١: ١٠١)

وجلي ما يعنيه الرسول الأكرم فالغرباء هم الذين سبقوا الآخرين من الناس في الإيمان بالرسالة النبوية وانفردوا بذلك ونزعوا من قبائلهم وتوحدوا واغتربوا بذلك. وبديهي أن الرسول الأكرم لا يخصص شخصاً بذاته في هذا الحكم لكن ممّا لا شك فيه أن الحديث ينطبق على علي بن أبي طالب (ع) لكونه أول من آمن بنبوة الرسول الأكرم حسبما وصلنا من أمّهات كتب السيرة، وأنه كان بضمن من نزع من قومه وعشيرته وقبيلته قريش في الإيمان بالرسالة المحمدية. وإليك طائفة من حديثه عليه السلام في هذا المضمون؛ أمّا عن كونه السابق في إيمانه بالرسول فيقول:

وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بَحْرَاءَ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وَخَدِيجَةَ وَأَنَا تَالَيْتُهُمَا أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوءَةِ. (عبده، محمد، ١٤١٣ هـ، ج ١: ٤١١)

وفي هذه الخطبة نفسها يذكر عليه السلام كيف كذبت قريش رسول الله (ص) بعدما رأت منه المعاجز ومنها معجزة الشجرة ونعته بالساحر الكذاب وقد كان عندها الصادق الأمين فتولت وأعرضت عنه لكنه (ع) آمن برسالة الرسول:

فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوَّلُ مَنْ أَقْرَبَ بَانَ الشَّجَرَةَ فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصَدِّقًا بِنُبُوءَتِكَ وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ عَجِيبٌ السَّحَرُ خَفِيفٌ فِيهِ وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا؟! يَعْزُونَنِي. وَإِنِّي لَمِنَ قَوْمٍ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَأَيِّمْ سَيِّمَاهُمْ سَيِّمَاتِ الصِّدِّيقِينَ وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ، عُمَارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ يُحْيُونَ سُنْنَ اللَّهِ وَسُنْنَ رَسُولِهِ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَلَا يَعْزُونَ وَلَا يَعْزُونَ وَلَا يَعْزُونَ وَلَا يَعْزُونَ، قُلُوبُهُمْ فِي الْجَنَانِ وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ. (المصدر السابق: ٤١٢)

وأما عن كونه النزاع من القبائل فيقول سلام الله عليه:

أَنَا وَضَعْتُ بِكَالِكَلِ الْعَرَبِ وَكَسَرْتُ نَوَاجِمَ قُرُونٍ رِبْعِيَّةٍ وَمُضَرَ وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ (المصدر السابق: ٤١١)

ويفص شدّة هذا النزوع بقوله:

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقْمِ وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ اللَّأْمِ وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ. (المصدر السابق: ١٢٩)

ولقد تركت الإلحاح والضغائن التي حملتها قريش وسائر قبائل العرب على علي (ع) أثرها، كيف لا وما من قتيل من كبار قتلى المشركين إلا ولعلى يد في هلاكه. ترى هل بإمكان الذين آمنوا برسالة الرسول عن مضمض أو عن ضعف عقيدة أن ينسوا أو يتناسوا ذلك؟ ولعمري بقيت تلك الضغائن دفينه في قلوب المشركين والمنافقين حتى قضى رسول الله نحبه فإذا بالوجه قد اكفهرت وإذا بنواجذ الوجد والغيظ قد بدت، يقول عليه السلام:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوا رَحِمِي وَأَكْفَتُوا إِنَائِي وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مُنَازَعَتِي حَقًّا كُنْتُ أَوْلَى بِهِ مِنْ غَيْرِي وَقَالُوا أَلَا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ وَفِي الْحَقِّ أَنْ تُنْمَعَهُ فَاصْبِرْ مَعْمُومًا أَوْ مُتَّاسِفًا فَظَنَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي رَافِدٌ وَلَا ذَابٌّ وَلَا مُسَاعِدٌ إِلَّا أَهْلُ بَيْتِي فَضَنَنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَيْبَةِ فَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَدَى وَجَرَعْتُ رَيْبِي عَلَى الشَّجَى وَصَبَرْتُ مِنْ كَطْمِ الْغَيْظِ عَلَى أَمْرٍ مِنَ الْعَلَمِ وَالْمَ لِقَلْبٍ مِنْ حَزِّ الشَّفَارِ. (المصدر السابق: ٤٥٣)

ويشير عليه السلام في طيات نهج البلاغة إلى بعض من هذه الضغائن الدفينه التي كانت تظهر نفسها بين الحين والآخر فيقول في شأن الشورى التي تكونت بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب (رض) لتعيين الخليفة من بعده: «فَصَعَا رَجُلٌ مِنْهُمْ لِضَغْنِهِ وَمَالَ الْآخِرُ لِصِهْرِهِ مَعَ هُنَّ وَهَنَّ» حيث ذهب كثير من شرّاح النهج ومنهم ابن أبي الحديد إلى أنّ الذي صغا لضغنه وتفجّرت في قلبه أحقاد الجاهلية الأولى هو طلحة، قال:

أما قوله (ع) فصغا رجل منهم لضغنه فإنه يعني طلحة - وقال القطب الراوندي يعني سعد بن أبي وقاص - لأن عليا ع قتل أباه يوم بدر - وهذا خطأ فإن أباه أبو وقاص واسمه مالك بن أهيب ... مات في الجاهلية حتف أنفه ... فأما الرواية التي جاءت بأن طلحة لم يكن حاضرا يوم الشورى فإن صحّت فذو الضغن هو سعد بن أبي وقاص لأن أمه حمّنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس والضغينة التي عنده على علي (ع) من قبل أخواله الذين قتل صناديدهم وتقلّد دماءهم، ولم يعرف أن عليا (ع) قتل أحداً من بني زهرة لئیسب الضغن إليه. وهذه الرواية هي التي اختارها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ. (ابن أبي الحديد، عزالدين حامد، ١٣٣٧هـ. ش، ج ١، ١٨٨)

وأيّاً كان الصاغى لضغينته، فإنه لم يختلف اثنان في كون الحقد الذي حملته قريش على عليّ إنّما هو لقتاله المشركين وضرب خراطيمهم والتزامه النهج الرسالي وتطبيقه الحرفي لأوامر الله في النبات للمشركين والصمود على الحق. ولم تنته الأحقاد عند هذا الحد بل استمرت حتى يوم الطف إذ اجتمع الناس على الحسين بن علي (ع) يقاثلونه فسألهم عن الذنب الذي اقترفه وجعلهم ينبرون لقتاله فأجابوه بكلّ صلف: «إنما نقاتلك بغضاً لأبيك». والذي جعل قريشاً تعادى علياً

وتظلمه كون على غير مدهن في إحقاق حق وإبطال باطل، إذ ليست الأحقاد وحدها سبب إعراضها عنه، بل لمعرفتها أيضاً أن الله اختاره وارتضاه إماماً وأن عليها أن تدخل في حيز إمارته، يقول واصفاً موقفه الصلب هذا تجاه قريش:

فَلَا تُقْبِنُ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ مَا لِي وَلِقُرَيْشٍ وَاللَّهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ وَلَا قَاتَلْتُهُمْ مَفْتُونِينَ، وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمْ الْيَوْمَ، وَاللَّهِ مَا تَنْقُمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا. (عبد، محمد، ١٤١٣ هـ.ق: ١٠٤)

بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء. قيل ومن هم الغرباء يا رسول الله؟ قال: أناس صالحون قليل في ناس كثير، من يعصهم أكثر ممن يطيعهم» (المالكي الأشتري، ١٣٧٦ هـ.ق، ج ٣: ١). وكذلك رواية: «قيل ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: أناس صالحون قليل في ناس سوء كثير، من يعصهم أكثر ممن يطيعهم. (الآجري، محمد بن الحسين، ١٤١٤ هـ.ق: ٢٨)

يتناول هذا الحديث جانباً آخر من سمات المتوحدين الغرباء، فمن صفاتهم أنهم صالحون، وبهذا يعزل الرسول الغرباء غير الصالحين، فالتاريخ يحدثنا عن عدد من الشعراء الذين تحامتهم قبائلهم لجنح اقترفوها وذنوب لم تغفرها لهم، فطردوا وأضحوا غرباء. وهؤلاء ليسوا مصداقاً للذين أشاد بهم الرسول بقوله «طوبى للغرباء»، والسمة الثانية أنهم يندرجون في إطار الأقلية في مجتمعهم، وإلا لما كانوا غرباء، فالغريب المتوحد من وجهة نظر رسول الله (ص) هو من الأقلية الصالحة. وكما يحدثنا القرآن عن هذه الأقلية الفائزة برضوان الله. يقول عن الذين آمنوا بنوح (ع) وركبوا معه الفلك: وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (سورة هود: ١٣) ويقول أيضاً: وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (سورة سبأ: ١٣) ويقول جلّ وعلا: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (سورة البقرة: ٢٤٣) ويقول: وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (سورة الأنعام: ١١٦) ويقول: وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (سورة يوسف: ٢١) ويقول كذلك: إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (سورة هود: ١٧) كما يقول جلّ وعلا: وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (سورة يوسف: ١٠٣) وما إلى ذلك من الآيات البينات الدالة على أن المؤمنين الثابتين على الصراط المستقيم غالباً ما يكونون أقلية مستضعفة. أمّا السمة الثالثة التي نتبينها من الحديث الشريف أن هذه الأقلية الصالحة مستضعفة لا يُعبأ بها وأن أكثر الناس يعصونها ولا يطيعونها. من هنا نستشف أن الغرباء المتوحدين هم أناس يعيشون في المجتمع ومع الناس وهم دعاة إلى الله حيث لا يطاعون، خلافاً لما يتصوره البعض أن الغرباء هم فئة اعتزلت المجتمع لكونها غريبة ولا يشاطرها الناس أفكارها ومعتقداتها. إذ لا بد أن يدعوا الناس ويأمرهم بشيء ما ليكون من يعصهم أكثر ممن يطيعهم. وإلا فإنهم إن كانوا ممن اعتزلوا المجتمع لما كانت

هناك حاجة للإطاعة أو العصيان لأنهم معتزلون لا يأمرون ولا ينهون. وليس من مرام الأنبياء ولا الأوصياء ولا عباد الله الصالحين أن يتركوا الناس سدى لمجرد أنهم لم يطيعوهم. يقول على (ع):

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَا يَسْتَعْنِي الرَّجُلُ وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ عَنْ عَشِيرَتِهِ وَدَفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَالسِّتِيهِمْ، وَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ وَالْمُهْمُ لِسَعْتِهِ وَأَعْظَمُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ. وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورَثُهُ غَيْرُهُ. أَلَا لَا يَغْدُلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخِصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لَا يَزِيدُهُ إِلَّا أَمْسَكَهُ وَلَا يَنْقُصُهُ إِلَّا أَهْلَكَهُ. وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ فَإِنَّمَا يَقْبِضْ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ وَيَقْبِضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ وَمَنْ تَلَّنَ حَاشِيَتَهُ يَسْتَنْدِمُ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ (عبده، محمد، ١٤١٣ هـ.ق: ٨٢ و ٨٣)

ونستشف أيضاً أن الغرباء الذين تتحدث عنهم الرواية يمتازون بمستوى فكرى رفيع سام يؤهلهم للدعوة والأمر والنهي. ولعل هذه الرواية - أى كون الغرباء أناساً صالحين قليلاً فى ناسٍ سوءٍ كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم - أدل فى المصادقية على أمير المؤمنين على (ع). وإليك نماذج من معاناته بعدما تسلّم الخلافة. يقول (ع):

فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَتْ طَائِفَةٌ وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ، كَانَهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا كَلَامَ اللَّهِ حَيْثُ يَقُولُ (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَعَوَّاهَا وَلَكِنَّهُمْ حَلَيْتِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَأَوْهُمْ زَبْرُجَهَا. (المصدر السابق: ٥٦)

ويصف عصيان أصحابه وعدم طاعتهم له بقوله:

لَقَدْ كُنْتُ أُمْسُ أَمِيرًا فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَأْمُورًا وَكُنْتُ أُمْسُ نَاهِيًا فَأَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مَنَهِيًا وَقَدْ أَحْبَبْتُمْ الْبَقَاءَ وَلَيْسَ لِي أَنْ أَحْمِلَكُمْ عَلَى مَا تَكْرَهُونَ. (المصدر السابق: ٤٣٩)

ولم ينته موقف الأمة من إمامها إلى هذا الحد بل بلغت الأزمة أوجها فصار على لا يجد لنفسه إلا النزر اليسير من الثقة بيت إليهم شكواه ويحدثهم عن غصصه. إنه يذكر ملامح هذا الوضع المزرى بعبارات ملؤها الحزن والكمند:

اسْتَنْفَرْتُمْ لِلْجِهَادِ فَلَمْ تَنْفَرُوا وَأَسْمَعْتُمْ فَلَمْ تَسْمَعُوا وَدَعَوْتُمْ سِرًّا وَجَهْرًا فَلَمْ تَسْتَجِيبُوا وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تَقْبَلُوا أَشْهُودَ كَعْيَابٍ وَعَبِيدَ كَأَرْبَابٍ أَتَلُّوْا عَلَيْكُمْ الْحِكْمَ فَتَنْفَرُونَ مِنْهَا وَأَعْظَمْتُمْ بِالْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةَ فَتَنْفَرُونَ عَنْهَا وَأَحْتَكُمُ عَلَى جِهَادِ أَهْلِ الْبَغْيِ فَمَا آتَى عَلَى آخِرِ قَوْلِي حَتَّى أَرَاكُمْ مُتَفَرِّقِينَ أَبَادَى سَبًا تَرْجِعُونَ إِلَى مَجَالِسِكُمْ وَتَتَخَادَعُونَ عَنْ مَوَاعِظِكُمْ أَقْوَمُكُمْ غَدْوَةً وَتَرْجِعُونَ إِلَى عَشِيَّتِهِ كَظَهْرِ الْحَيَّةِ عَجَزَ الْمُقَوْمُ وَأَعْضَلَ الْمُقَوْمُ. (المصدر السابق: ٢١٦)

ويتحدث عليه السلام عن الفترة التي تلت وفاة الرسول الأكرم (ص) وكيف كان يعاني الغربة فى قوم لم يعض على بيعتهم له سوى بضعة شهور، فبقى من دون ناصر ومعين لا أحد يطيعه أو يقيم له وزناً، يقول:

وَطَفِقْتُ أَرْتَبِي بَيْنَ أَنْ أُصُولَ بَيْدِ جَدَّاءَ أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيَةِ عَمِيَاءَ نَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنْ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى فَصَبَّرْتُ فِي الْعَيْنِ قَدَى وَفِي الْحَلْقِ شَجَا. (المصدر السابق: ٥١)

«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء. قيل ومن هم الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس» (الأحسائي، محمد بن علي، ١٤٠٥ هـ.ق، ج: ١، ١٠١) وقد زاد كتاب النوادر إليها العبارة الآتية:

إنه لا وحشة ولا غربة على مؤمن، وما من مؤمن يموت في غربة إلا بكت عليه الملائكة رحمة له، حيث قلت بواكيه وإلا فسح له في قبره بنور يتلأأ من حيث دُفن إلى مسقط رأسه. (الراوندي، فضل الله، ١٣٧٠ هـ.ش: ٩)

وهذه الرواية أيضاً تعطى مصداقاً آخر للغرباء حدده الرسول الأكرم (ص). وهو كون الغرباء أقلية من الناس تصلح إذا فسد غالبية الناس. وهذا ما يجعلها تعاني الغربة وفقدان الرفيق. وفي كلام علي (ع) ما يدل على هذا المعنى أي أنه بقي ملتزماً بالتهج المحمدي الأصيل وقد انحرف غالبية الناس عن السنة المحمدية، يقول:

وَلَكِنَّكُمْ نَسِيتُمْ مَا ذُكِّرْتُمْ، وَأَمَنْتُمْ مَا حُدِّرْتُمْ، فَتَاهَ عَنْكُمْ رَأْيَكُمْ، وَتَشَتَّتَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ اللَّهَ فَرَّقَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَالْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ، وَالْحَقَنِي بِمَنْ هُوَ أَحَقُّ بِي مِنْكُمْ، قَوْمٌ وَاللَّهِ مَيَّامِينُ الرَّأْيِ، مَرَّاجِيحُ الْحِلْمِ، مَقَاوِيلُ بِالْحَقِّ، مَتَارِيكُ لِلْبَغْيِ، مَضُوءٌ قَدْماً عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَأَوْجَفُوا عَلَى الْمَحَجَّةِ، فَظَفَرُوا بِالْعُقْبَى الدَّائِمَةِ. (عبده، محمد، ١٤١٣ هـ.ق: ٢٥٦)

لقد واجه الرجل ظروفاً عصيبة في أخريات أيامه. حيث كان يرى بأم عينه كيف أن الناس أعرضوا عن طريق الحق وتقايسوا عن نصره الباطل واستسلموا للغوغاء الذين باعوا دينهم بديناهم وتبعوهم بكل ما أوتوا من قوة. ولقد كان عليه السلام يرى بصيرته الإيمانية النافذة ما سيؤول إليه أمر قومه الذين تولوا الباطل:

مَا لِي أَرَاكُمْ أَشْبَاحاً بِلَا أَرْوَاحٍ، وَأَرْوَاحاً بِلَا أَشْبَاحٍ، وَنَسَاكاً بِلَا صَلَاحٍ، وَتِجَاراً بِلَا أَرْبَاحٍ، وَأَيْفَظاً نَوْماً، وَشُهُوداً غَيْباً، وَنَاطِرَةً عُمِيّاً، وَسَامِعَةً صُمّاً، وَنَاطِقَةً بُكْمّاً، رَأَيْتُ ضَلَالَةً قَدْ قَامَتْ عَلَى قَطْبِهَا، وَتَفَرَّقَتْ بِشَعْبِهَا، تَكِيلُكُمْ بِصَاعِهَا، وَتَحْطِطُكُمْ بِبَاعِهَا، فَاتِدْهَا خَارِجٌ مِنَ الْمَلَّةِ، قَائِمٌ عَلَى الضَّلَّةِ، فَلَا يَبْقَى يَوْمئِذٍ مِنْكُمْ إِلَّا نَفَالَةٌ كُنْفَالَةَ الْقِدْرِ، أَوْ نَفَاضَةَ كُنْفَاضَةِ الْعِكْمِ، تَعْرُكُكُمْ عَرَكُ الْأَدِيمِ، وَتَدُوسُكُمْ دُوسَ الْحَصِيدِ، وَتَسْتَخْلِصُ الْمُؤْمِنَ مِنْ بَيْنِكُمْ اسْتِخْلَاصَ الطَّيْرِ الْحَبَّةِ الْبَطِينَةَ مِنْ بَيْنِ هَزِيلِ الْحَبِّ. (المصدر السابق: ٢٣٥)

وما ورد في هذا المعنى لكثير يدل على هذا الانحراف السافر عن سنة الرسول. ومنه قوله (ع):
فِيَا عَجَبِي وَمَا لِي لَا أَعْجَبُ مِنْ خَطِيئَةِ هَذِهِ الْفِرْقِ عَلَى اخْتِلَافِ حُجَجِهَا فِي دِينِهَا، لَا يَقْتَضُونَ أَثَرَ نَبِيِّ

وَلَا يَتَّقِدُونَ بِعَمَلٍ وَصِيٍّ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِغَيْبٍ، وَلَا يَعْفُونَ عَنْ عَيْبٍ، يَعْمَلُونَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَيَسْبِرُونَ فِي الشَّهَوَاتِ، الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ مَا عَرَفُوا، وَالْمُنْكَرُ عِنْدَهُمْ مَا أَنْكَرُوا، مُفْرَعُهُمْ فِي الْمُعْضَلَاتِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَتَعْوِيلُهُمْ فِي الْمُبْهَمَاتِ عَلَى آرَائِهِمْ، كَانَ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ إِمَامًا نَفْسِهِ، فَذُ أَخَذَ مِنْهَا فِيمَا يَرَى بِعُرَى ثِقَاتٍ وَأَسْبَابِ مُحْكَمَاتٍ. (المصدر السابق: ١٨٤)

بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء. قيل ومن هم الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتي ويعلمونها للناس. (ابن قيم الجوزية، محمد، ١٣٩٧ هـ.ق: ١٢٢)

ولا أظن منصفاً من المؤرخين والباحثين ينكر مدى تمسك علي بن أبي طالب بسنة رسول الله وسعيه في إحيائها وتعليمها للناس. أمّا إمامه بسنة الرسول ومعرفته بعلومه فإنه يصفهما بقوله:

وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بَحْرَاءَ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٍ وَاحِدٍ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَاتِ وَأَشْمُ رِيحَ النَّبِوَّةِ. وَلَقَدْ سَمِعْتُ رُتَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ (ص) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرَّتَّةُ؟ فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنْكَ لَسْتَ بِنَبِيِّ وَلَكِنَّكَ وَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ. (عبده، محمد، ١٤١٣ هـ.ق: ٤١١)

وأما سعيه لإحيائها وتحمله الغصص تلو الغصص من أجل ترسيخها في المجتمع الشارد عن الحق فيدل عليه قوله:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو مِنْ مَعْشَرَ يَعْيشُونَ جُهَالًا وَيَمُوتُونَ ضَلَالًا، لَيْسَ فِيهِمْ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تَلَى حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا سِلْعَةٌ أَنْفَقَ بَيْعًا وَلَا أَعْلَى ثَمًّا مِنَ الْكِتَابِ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا عِنْدَهُمْ أَنْكَرُ مِنَ الْمَعْرُوفِ وَلَا أَعْرَفُ مِنَ الْمُنْكَرِ. (المصدر السابق: ٧٥)

ويبين عليه السلام توحده بين أصحاب رسول الله في الاطلاع على مكنون العلم الذي خصه به الرسول الأكرم. فعلى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وسأل رسول الله عنها، بينما كان سائر الصحابة يسمعون كلامه من خلال إجابته عن أسئلة أعرابي غريب، يقول علي (ع) واصفاً هذا المعنى:

وَلَيْسَ كُلُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ (ص) مَنْ كَانَ يَسْأَلُهُ وَيَسْتَفْهَمُهُ حَتَّى إِنْ كَانُوا لَيَجِئُونَ أَنْ يَجِيءَ الْأَعْرَابِيُّ وَالطَّارِئُ فَيَسْأَلُهُ (ص) حَتَّى يَسْمَعُوا وَكَانَ لَا يَمُرُّ بِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ إِلَّا سَأَلْتُ عَنْهُ وَحَفِظْتُهُ، فَهَذِهِ وَجُوهٌ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي اخْتِلَافِهِمْ وَعَلَيْهِمْ فِي رَوَايَاتِهِمْ. (المصدر السابق: ٤٤٢)

وكان كثيراً ما ينوه بمكانته عند الرسول لا من أجل أن يفاخر - ومن حقه أن يفاخر - بل من أجل أن يغتنم الناس وجوده بينهم فيستفهموه عن أمور دينهم وديناهم:

إِنَّمَا مَثَلِي بَيْنَكُمْ مَثَلُ السَّرَّاجِ فِي الظُّلْمَةِ يَسْتَضِيءُ بِهِ مَنْ وَلَجَهَا فَاسْمَعُوا أَيُّهَا النَّاسُ وَعُوا وَأَحْضِرُوا آذَانَ قُلُوبِكُمْ تَفْهَمُوا.

وكان عليه السلام يلقي الحجّة على الناس في دعوتهم إلى الاستئان بسنة الرسول بعد أن بيّنها لهم خير بيان، فكان يرفع يديه بالدعاء يستشهد الله عزّ وجلّ على من أبى الانصياع لإرشاده وكلامه التابع ممّا ورثه عن رسول الله (ص):

اللَّهُمَّ أَيُّمَا عَبْدٍ مِنْ عِبَادِكَ سَمِعَ مَقَالَتَنَا الْعَادِلَةَ غَيْرَ الْجَائِرَةَ وَالْمُصْلِحَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا غَيْرَ الْمُفْسِدَةَ فَأَبَى بَعْدَ سَمْعِهِ لَهَا إِلَّا النُّكُوصَ عَنْ نُصْرَتِكَ وَالْإِبْطَاءَ عَنْ إِعْزَازِ دِينِكَ فَإِنَّا نَسْتَشْهَدُكَ عَلَيْهِ بِأَكْبَرِ الشَّاهِدِينَ شَهَادَةً وَنَسْتَشْهَدُ عَلَيْهِ جَمِيعَ مَنْ أَسْكَنَتْهُ أَرْضُكَ وَسَمَاوَاتُكَ ثُمَّ أَنْتَ بَعْدُ الْمُغْنَى عَنْ نُصْرِهِ وَالْآخِذَ لَهُ بِذَنْبِهِ. (المصدر السابق: ٤٤٤)

وأخيراً لا بدّ من الإشارة إلى الكمّ الهائل من الخطب والكلمات التي تضمّنها نهج البلاغة بيثّ فيها الإمام شكواه من الأمّة التي لم تتوان في إيذائه وتجريعه نعب التهمام وكدرت عليه حياته ونغصت عليه عيشه. إلاّ أنّ المجال لا يسمح لنا سوى بعرض طوائف يسيرة تبين مدى توحّده واغترابه المؤلم. ومن ذلك قوله:

مَا زِلْتُ أَنْتَظِرُ بِكُمْ عَوَاقِبَ الْعَذْرِ وَأَتَوَسَّمُكُمْ بِحَلِيَّةِ الْمُعْتَرِينَ» (المصدر السابق: ٥٨) وقوله يصف وحدته وتفردّه بعد الرسول (ص): «وَلَطَفْتُ أَرْضِي بَيْنَ أَنْ أُصُولَ بِيَدِ جَدَاءٍ أَوْ أُصْبِرَ عَلَى طَخِيَّةِ عَمِيَاءٍ يَهْرُمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَيَشِيْبُ فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَكْدَحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْسَى، فَصَبْرْتُ وَفِي الْعَيْنِ قَدَى وَفِي الْخَلْقِ شَجًا. (المصدر السابق: ٥١)

وقد قال يصف اجتماع القوم عليه يطالبونه بدم عثمان بن عفّان:

وَاللَّهِ مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكَرًا وَلَا جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نَصِيفًا وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ وَدَمًا هُمْ سَفَكُوهُ. (المصدر السابق: ٨٠)

ولشدّ ما أبدى سخطه على أصحابه لشدّة تباطؤهم في نصرة الحقّ:

مُنِيْتُ بِمَنْ لَا يُطِيعُ إِذَا أَمَرْتُ وَلَا يُجِيبُ إِذَا دَعَوْتُ، لَا أَبَا لَكُمْ مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبِّكُمْ أَمَا دِينَ يَجْمَعُكُمْ؟ وَلَا حَمِيَّةَ تُحْمِسُكُمْ؟ أَقَوْمٌ فِيكُمْ مُسْتَصْرَخًا وَأُنَادِيكُمْ مُتَغَوِّنًا فَلَا تَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا وَلَا تُطِيعُونَ لِي أَمْرًا حَتَّى تَكْشِفَ الْأُمُورُ عَنْ عَوَاقِبِ الْمَسَاءَةِ. (المصدر السابق: ١١٣)

وقد بثّ شكواه إلى رسول الله (ص) من أمّته في عالم الرؤيا أو في ما يراه الأولياء من عالم الغيب فقال:

مَلَكْتَنِي عَيْنِي وَأَنَا جَالِسٌ فَسَنَحَ لِي رَسُولُ اللَّهِ (ص) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَاذَا لَقِيتُ مِنْ أُمَّتِكَ مِنَ الْأَوْدِ وَاللَّدْدِ؟ فَقَالَ: ادْعُ عَلَيْهِمْ، فَقُلْتُ أَبْدَلْنِي اللَّهُ بِهِمْ خَيْرًا مِنْهُمْ وَأَبْدَلْهُمْ بِي شَرًّا لَهُمْ مِنِّي. (المصدر السابق: ١٤٤)

نتائج خالص إليها هذا المقال

١. التوحّد نوع من أنواع الغربة، حيث يجد صاحبها نفسه غريباً بين أبناء مجتمعه لكونهم لا يرقون إلى مستواه العلمي ولا يضاھونه في عظمتة.
٢. من أكثر أنواع الغربة في التاريخ، الغربة المكانية أو الجغرافية، وهي التي يجد صاحبها نفسه بعيداً عن أسرته وعشيرته وبلده. فتثير هذه الغربة أشجاناً وأحزاناً، لكننا نجد أمير المؤمنين علياً عليه السلام لا يكثر لهذه الغربة بل ويشجّع عليها أحياناً.
٣. ومن أنواع الغربة أيضاً الغربة الزمانية حيث يرى المرء نفسه غريباً في زمانه إمّا لكونه متقدماً على مجتمعه في زمانه أو لأنّه يرى الموازين التي يمت إليها بصلة قد ولّت وأدبرت بإدبار الزمان فما يزال يذكرها ويذكر زمانها بشيء من الحسرة ويتوق إلى العودة إلى ذلك الماضي. وقد تكون الغربة الزمنية بالتطلّع للزمن الآتي، وهو الزمن الموعود به والذي يحمل له الأمل الواعد. وفي كلام عليّ عليه السلام ما يدلّ على هذا النوع من الغربة بشقّه الأول.
١. والنوع الثالث من أنواع الغربة نمطها الإخواني، حيث يجد المرء نفسه بعيداً عن أناس كان يحبّهم ويحبّونه ويرتاح إليهم ويشاطرهم أخلاقهم وعقائدهم.
٢. ومن أنواع الاغتراب، الغربة الاجتماعية، وهي من أقسى أنواعها. وقد رأينا ما من الحثّ في الحديث والرواية على فضيلة هذه الغربة بمصاديقها المثالية المتمثلة بإحياء السنّة والالتناء إلى الأقلية الحقّة والصالحة. وكان هذا النوع من التوحّد من أشدّ أنواع غربة عليّ بن أبي طالب.

الهامش

١. القلوص: الناقة الشابة وهي في منزلة الجارية من النساء.
٢. طلّحه السفر: أعياه وأسقطه، والطلّيح هو المتعب الساقط.
٣. المهامه الفيح: الصحارى الشاسعة.
٤. جاء في كتاب «تذكرة الخواص» لسبط بن الجوزي ص ٢٨٧: وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد.
٥. أراد عمار بن ياسر وأبا الهيثم مالك بن التيهان وخزيمة بن ثابت صاحب رسول الله الذي جعل رسول الله (ص) شهادته مقام شهادة رجلين.
٦. نسبة إلى العقيدة.
٧. رواها من الشيعة المجلسي في البحار ج ٨ ص ١٢ لكن عن أمير المؤمنين علي (ع)، والصدوق في عيون أخبار الرضا ج ١ ص ٢١٨ عن الإمام الرضا عن رسول الله وابن جمور الأحسائي في العوالي ج ١ هامش ص ٣٣، والكليني في الكافي ج ١ ص ٣٩١، وآخرون. ورواها من أهل السنّة

المتقى الهندي في كنز العمال في الحديث ١١٩٢ ومسلم في صحيحه ج ١ ص ٩٠ وآخرون
كثيرون.

٨. يقصد (ص) بالنزاعين أولئك الذين انفردوا في قبائلهم لقبولهم الإسلام.
٩. جاء الحديث في كتب الشيعة على صيغة مختلفة بعض الشيء، قال (ص): «رحم الله خلفائي ... الذين يحيون سنتي ويعلمونها عباد الله» (الشهيد الثاني، ١٤٠٩ ق ١٠١/)

المصادر

القرآن الكريم.

الآجري، محمد بن الحسين (١٤٠٣ق). كتاب الغرابة، تحقيق بدر البدر، ط ١، الكويت، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي.
ابن أبي الحديد، عز الدين حامد (١٣٣٧ش). شرح نهج البلاغة، تصحيح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، قم، إيران،
مؤسسة اسماعيليان للطباعة والنشر.
ابن باجه الأندلسي، أبو بكر محمد بن يحيى (١٩٧٨م). تدبير المتوحد. تحقيق الدكتور معن زيادة، ط ١، بيروت،
لبنان، دار الفكر.

ابن عربي، محيي الدين (١٤٢٢ق). محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار. ط ١، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.
ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر (٢٩٢ق). الغرابة والاعتراب، رسالة مختارة من كتاب مدارج
السالكين؛ شرح منازل السائر، ط ٢، القاهرة، مصر، نشر قصي محب الدين الخطيب.

ابن كثير الدمشقي، اسماعيل بن عمرو (١٤١٩ق). تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ط ١،
بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

أبو الفرج الإصهاني، علي بن الحسين (١٩٧٢م). أدب الغرابة؛ عن بنشره صلاح الدين المنجد، ط ١، بيروت، لبنان،
دار الكتاب الجديد.

أبو فراس الحمداني، الحارث بن سعيد (١٩٨٧م). الديوان، بتحقيق الدكتور محمد التونجي، ط ١، دمشق، سورية،
المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية.

الأحسائي، ابن أبي جمهور محمد بن علي بن إبراهيم (١٤٠٥ق). عوالي الآل في الغرابة في الأحاديث الدينية، ط ١،
قم، إيران، دار سيد الشهداء للنشر.

الإمام علي بن أبي طالب (١٣٨٢ق). ديوان أمير المؤمنين وسيد البلغاء والمتكلمين. جمع وترتيب عبدالعزيز الكرم،
دون مكان الطبع، مطبعة الكرم.

امرؤ القيس، حنّج بن حجر (١٤٢٥ق). ديوان امرئ القيس. شرحه عبدالرحمن المصطاوي، ط ٢، بيروت، لبنان، دار المعرفة.

البستاني، فؤاد أفرام (١٩٩٣م). المجاني الحديث؛ عن مجاني الأب شيخو. ط ٧، بيروت، لبنان، دار الشروق.

الجاحظ، عمرو بن بحر (١٤٠٢ق). الحنين إلى الأوطان، ط ٢، بيروت، لبنان، دار الرائد العربي.

الجبوري، يحيى (١٤٢٨ق). الحنين والغرابة في الشعر العربي. ط ١، عمان، الأردن، دار مجدلوى للنشر والتوزيع.

الطائي، حاتم (١٤٠٦ق). ديوان حاتم الطائي. شرحه وقدم له أحمد رشاد، ط ١، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (١٤١٧ق). *تاريخ بغداد*، ط ١، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.
الراوندي، فضل الله (١٣٧٠ ش). *النوادر*، ط ١، قم، إيران، مؤسسة دار الكتاب.
سبط بن الجوزي، شمس الدين يوسف بن حسام الدين (١٤١٨ق). *تذكرة الخواص*، ط ١، قم، إيران، منشورات الشريف الرضي.
الصالحى الشامى، محمد بن يوسف (١٤١٤ق). *سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد*، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، ط ١، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.
عبد، محمد (١٤١٣ق). *شرح نهج البلاغة*، ط ١، بيروت، لبنان، مؤسسة الأعلمی للمطبوعات.
عنتر بن شداد، العبسى (١٨٩٣م). *ديوان عنتر*، ط ٤، بنفقة خليل الخورى، بيروت، لبنان، المكتبة الجامعة.
فهييم، حسين محمد (١٩٨٩م). *أدب الرحلات*، دون معلومات عن الطبعة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب.
القيومي، محمد إبراهيم (١٩٨٨م). *ابن باجه وفلسفة الاغتراب*، ط ١، بيروت، لبنان، دار الجيل.
الكلينى الرازى، محمد بن يعقوب (١٣٦٥ش). *الأصول من الكافي*، ط ٤، طهران، إيران، دار الكتب الإسلامية.
المالكي الأشتري، أبو الحسين ورام بن أبي فراس (١٣٧٦ق). *تنبيه الخواطر ونزهة النواظر*، ط ٢، بيروت، لبنان، دار التعارف للمطبوعات.
محجوب، فاطمة (بلا تاريخ). *قضية الزمن فى الشعر العربى؛ الشباب والمشيب*، ط ١، القاهرة، مصر، دار المعارف.